وقفة في قلعة بعلبك

للكاتب الاديب فليكس افندي فارس (تنسّك)

بقي لي أن ارى هيكلين احدهما لباخوس والاخر للزُهرة ذاك حيث عُبد الجنون وهذا حيث احتُقر الحبّ

أمرُّ برواق طويل يعلوه سقفٌ عالٍ تحملهُ اعمدة هائلة على الارض وفي السقف المتهدّم اصنامٌ نُحتت في صخر صلد لم يقوَ الزمان على تخديش تراثاتهِ البارزة الممثلة الهةً متعدّدي الاشكال والهيئات الّا ان ايدي الامم الحديثة لم تبقِ لتلك الدُمى ما كان يعيننا لو بقي على درس اخلاق ناحتيها . الصدورُ باقيـة ولكنَّ الوجوه محطمةٌ تحطيماً فلا فم ولا انف ولا جبين ولا عين وهذه كانها لغة الاخلاق فليتها بقيت لتروي لنا تلك الافكار التي جالت منذ الوفٍ من السنين برؤوس حلّلها الفناء . ولكن على بقايا هذه المنحوتات ارى صوراً رائعةً بالجمال وحسن التركيب صدوراً بارزةً واكتافاً قويّة تدل على الانفة والاقتدار

فهل ان ذلك الشعب الناحت اخذ صورة التماثيل عن اجساد احياء ام انهُ اخذها عن صور خياليّة ؟ لا اعلم . ولكن على كلٍ لا تمالك نفسي من الاعجاب بمهارة ذلك الشعب وكلما رأيت دليلاً جديداً على سمو تخيُّلهِ وحسن ذوقهِ يتجدد صوت تلك الحقيقة السامية في اذني

مهما ارتقى الفكر واشتدت القوى بالانسان فهو آلةٌ مضحكة لا معقول باعمالهِ إن لم تكن لله . مهما ارتقى الانسان بافكارهِ ولم تكن رأس حكمتهِ معرفة الله وعبادته بالروح والحق فهو خابط بالاوهام يبني فيكون بناؤهُ ضخماً ولكن ما هي تلك الضخامة ؟ يعبد ولكن مَن يعبد ؟ يحكم الى امدٍ ولكن كيف يحكم ؟ يسنُّ السنن ولكن على مَ ترسو تلك السنن وما يكون اساسها يا تُرى ؟ — ضخامة بلا عظمة . عبادة باعجاب وكبر دون عزاء ودوا أمل . حكم بمطلق الارادة وبمجرَّد الاهواء . سنن ترسو على المقاصد الشخصيّة وهي تتغير فتتقلب كل يوم حسب الاوهام والاميال

هكذا كان شعبكِ القديم يا بعلبك واكاد أن احكم بل اجزم بأن مـا بين

فخامتك لم تشعر نفسٌ بأمل خالد ولم ينبض قلبٌ بحب مقدس اكيد . لم تُذرف دمعة على شقاء ولم تُمدّ يدٌ لضمد جراح . ومن كانت هذه حالته في الشعور وهذا نصيبه من أدب النفس فلا بدع اذا رفع هيكلاً لاله الخمر وتمرّغ عند اقدامه باوحال السكر رأس العاصي

لم هذه الجدران المرتفعة عليها من الزخارف ما صُرفت الاعوام الطويلة في نحته . هنالك في هيكل الشمس اشتغل الشعب ليعبد ما خاله الهاً باعثاً الحياة . أما هنا فأي تخيُّل طرأ عليه حتى يجعل الجنون مولهاً ويرى اضاعة الفهم موضوعاً لرفع هيكل ؟

كيف كانت تتم الجتمعات هنا ؟ كيف كان العقل يعبد الجنون والقلب يخشع امام مُضيع كل خشوع ؟ كيف كانت تلك الادمغة الغريبة التي تعبد كل شيء يولد من تصورها حتى السيئات

اقف عند هيكل باخوس فلا اشعر باقلّ تأثر اخال نفسي ماراً امام حانة من حانات العصر فلا يتولد بافكاري شيء اخطّه . هنا كان الشعب القديم يجتمع ليشرب ويشمل ويرقص . اذمال صبيانيّة ! ولكن لا املك نفسي من التعجب من قوم كانوا يعرفون أن يجتمعوا امام الاوهام فيجعلوها اساساً اولياً للحياة . ولكن لم يعرف ذلك الشعب بانهُ كلما بعُدَ عن الوسط الطبيعي يقترب الى حيث يخدر الشعور ويفقد القلبُ ادراك اللذة الحقيقيّة

خرجتُ من هيكل الشمس صامتاً حائراً اما هيكل باخوس فاخرج منهُ متأسفاً لاعناً هذا الاله السافل وقد داخلني بعض الاحتقار لارباب هذه الفنون الجميلة . شعبٌ يولّدُ ما تعجز عنهُ قوّة الارادة والفكر وهو يعبد جنونه ويرفّه امياله باضاعة وجدانه الضعيف

*

اذير خطواتي الى هيكل الزهرة وهو خارج السور الجامع لهيكلي الشمس وباخوس

هنا اعمدة قلائل اقلّ ضخامةً من تلك قائمة بشكل مستدير يشغل قطعةً صغيرة من الارض وقد احاطتها البساتين وعكفت عليها الاشجار

امام هذا الهيكل الصغير اشعر بامتداد في الفكر وأتعمق بالتأمل . يلوح لي بأن في هذه الفسحة الصغيرة كانت الركب تجثي بخشوع صادق وتذرف الدموع باخلاص . كانت مناجاة القلوب للزهرة كسكون المعلول امام العلة هنا كان شيء من الحب السامي متسنماً عرش القلوب ولكنه لم يكن يلبث أن ينزل عن ذلك العرش الذي اوجدتهُ العناية عليهِ لمغالبة الفساد . لم يكن يثبت بالامانة والتقديس لم يكن الأخيار يظهر ملاكاً ويتلاشى شيطاناً

هنا كم فُتح قلب للاحتياج الأبديّ بالعطف وتبادل الاخلاص . كم اختلجت عواطف كانت كتموجات الشفق قبل أن يدهمهُ الظلام . هنا كم جثت عذراء مولودة من نظام مفسود وفي قلبها شريعة الحب الابدية تناضل الاختلال وتريد أن تستقرّ على ما اراد الله . هنا كم تجلّى الحبُّ على ما هو محفوفاً بجنود الولاء والانعطاف والامانة والثبات فانزلهُ الشعب على حضيض مقفر وجرّده من جنوده ليعبده مفرداً معرًى عن اتباعه وهم كل جماله . . .

في ذلك الحين لم يكن دوى بعدُ صوت المعلم العظيم هاتفاً بتوحيد الحب وترتيب الهوى لم تكن كلمة « الى الموت » تدوي في هياكل الحب لأن الازلي كان لم يدفعها بعد الى قلب الحياة

هنا كم وُضع كفٌّ بكف وغرق نظر بنظر والقلب يختلج بالمبادئ الاولية للحب يريد أن يهتف « الى الموت » فتخنق صوتهُ نظامات البشر وخلالهم واعرافهم ويتلجلج ذلك الصوت متلاشياً امام الزهرة الباسمة وهي متجردة عن الوفاء والثبات . في ذلك الحين كانت المرأة ساندةً بجسمها لا بقلبها . كان لها حق الظهور بالالفة ما دام لها جمال فكأنّ نسبها الوحيد للبشريّة لم يكن مرتبطاً بغير القوام واللحظ

أما الامومة والبنوة والاخاء فكانت لا شكَّ معدمةً عندها وقد محاها الشبق والهوى من لوح شريعتها الابدية . وهاءنذا بدليلي على ذلك :

حب الاب لابنهِ هو كعطف الكل على بعضهِ فلا اعلم كيف كان ذلك العطف حينما كان يتولّد اوّلاً من امیالٍ مترعزعة وينتهي عند التسليم لتشبّع وقتي تمتّعٌ اذا التهُ الذوق رضي بهِ ولكن لا يمكن للوجدان أن يبيد سهما تغشّى بظلمات العوائد

حب الاخ لاختهِ يرسو على اعتبار كرامتها بعيني نفسها فلا اعلم كيف كان ذلك

الإخاء وماهية روابطه في عهدٍ كانت يد الاخت مملوكة من الكل ما عدا نفسها وهي بهذه الحالة ابعد كائن يحقُّ له واجب الاخاء.

حب الزواج لشريكة حياته يرسو على الانانيَّة الشريفة اي أن الرجل يخال نفسهُ امام قرينتهُ الكائن الوحيد القادر على مناجاة قلبها وتحريك عواطفه فيكون على ثقةٍ بانهُ اول محبوب وآخر من يحب فلا افهم معنى تمتع الاقدمين بحبٍ موهوم لا يمكن أن يتولد لمجرَّد تقديم كأس جميل وبناء قصر فخيم . لا افهم كيف كانت تلك العقول الذكيَّة ترضى بمخادعة نفسها واعجب من عاقلٍ يعيد الى سيفه ومالهِ بتوليد ما عجزت عنهُ صفاته الذاتيَّة . فكأنَّ الانسان لم يكفهِ أن يكون محروماً من كل صداقةٍ حيث لا رابط الَّا القوَّة الجائرة او الصالح الخاص بالمخادعة والدناءة حتى انهُ جعل هيكل قلبهِ معتركاً للضعيف والقوة مكاناً لمقاومة الواجب للضرورة . موضعاً للعبوديَّة حيث لا يجب أن يكون سيدٌ وعبد . . . حبّ الابن لأمه ناتجٌ من اعتبار الصفات اكثر من معرفة الجميل . لا يولد حب صادق الَّا من أمانة صادقة لا يمكن للولد ان يحبَّ أمهُ اذا عرف ان فؤادها يتيه كل يومٍ ببرادٍ جديد فكأنهُ يشعر اذ ذاك انهُ ابن هوًى ذميم وليس ابن اخلاص وثبات كما يطلب الشرع السامي الذي يشعر بهِ الطفل من حركات وجدانهِ الخارج غضاً من جنان الارواح

كتبتُ هذه الافكار وانا امام هيكل الزهرة افتكر بعوائد شعبٍ قديم ظاناً انني اصوّر حركات قلبهِ وهاءنذا ارى بأسفٍ ان الذي اكتبهُ عن قومٍ طواهم البلى منذ الوفٍ من السنين هو هو ما يجري الان في أمةٍ ترفض الشريعة المنزلة وتريد ان تستغني عن الهها !!!

سقطتَ يا هيكل الزهرة الى الارض وتهدَّمت جدرانك الَّا انك حتى الآن لم تَبِدْ . في كل مدينة لك شعب ولك عبادة بكل قلب

لقد بناك شعبٌ ضلَّ لانهُ لم يسمع الحقيقة الازليَّة فآسفُ عليهِ ولا الومه . ولكنني لا اعلم ما اقول عن شعب سمع بالهداية فرفضها مندفعاً الى الضلال !!!

اخرج منكِ يا قلعة بعلبك وفي نفسي اسفٌ وخشوع لا اخرج بقلبٍ حقَّرتهُ عظمتك فانني عرفت مبدأ تلك العظمة فما هي الَّا فخامةٌ بلا مجد . لا اخرج مبهوتاً ومعجباً بهندستك ونقوشك فهي مرتَّبة على قياس ولكنها فارغة من كل معنى

وجمال . ولكنني اخرج آسفاً على شعب كان يمكنه ان يعيش سعيداً فتلاشى بين الخرافات والاباطيل

اقف لآخر مرة بين هذه الاطلال متأملاً في ما كان فيما مضى مقام الجاه والشرف وهو الان مقام الحيوانات الزاحفة لا طير مغرد ولا شجرة تلوح بين هذه الجدران لا اسمع حركة تعلن الحياة ولا ارى شيئاً يناجي القلب الحي بسوى دلائل الزوال . امام هذا البرهان العظيم لحقارة البقاء اشعر بانني واقف على شفير الموت وما بيني وبين الرمس الّا قيد ذراع

اسند الرأس على هذا الرخام المتداعي ورجلي ترتجف على الارض ناسياً مسير الزمان وكلّ علاقة لي بالحياة لا اعرف مَن أنا ولا بأي قسم اقف على الكرة الارضية . ارى الكون باسره مجسماً امامي بهذه الاشجار الضخمة المكسرة وقد ابتدأ الظلام أن يرخي عليها ستاره الرهيب :

طلمة يوم تتسلسل على ظلام قرون . سكون ليل يجلل ما ورث الجمود من حركة الالوف من السنين

هكذا يسقط ستار الموت بلحظة على الحي وهو بكل يوم يموت . هكذا يظلل الانسان جنح الفناء

ما معنى غرورك ايتها الحياة؟ ما هو شعورك ايها القلب؟

— على الافق الصافي حيث تتموج اخر ذرّات النهار ارى نجماً يلوح باصفرار يتحول رويداً الى حمرة نارية تأسر النظر وتوقف كل حركة بالفكر . هناك من بعيد من عار السماء الى سطح الارض . الى حيّ يناجي عالم الامرات . ارى اشعة تنزل بعطف لتنير التصور الثاني

عليك السلام يا نجمة المساء . انتِ الساطعة بنورك اللطيف بعد ان تلاشى كل نور باهر وحركة مضلّة

في هذه الساعة حين يسقط على الارض من السماء شيء اشبه بجناح الابدية ليسكت صوت الطمع ويغطي بوارق الامال الكاذبة . في هذه الساعة اراكِ شبيهةً بنور الامل الابدي الذي ينير القلوب المؤمنة . اشبهك بذلك النور السماوي الذي لمع منذ عشرين قرناً في افق غشاه الظلام . اقف امامك معلقاً عليك ابصاري فاذى لدى نورك

هذه الخرائب التي تملن الفنـاء الدائم للفكر المظلم . واذكر أن وراء هذه الضخامة المنقلبة وفوق هذا السماء الذي يخيّم فوقها عظمةٌ ثابتة وفخامةٌ لا تزول

مطبوعات شرقية جديدة

Atlas Scripturæ Sacræ. Decem tabulæ geographicæ cum indice locorum Script. S. Vulgat. edit., Scriptorum ecclesiast. et ethnicorum. auct. D^r R. DE RIESS. edit. 2^a recognita et collata, passim emendata et aucta labore et studio D^r C. RÜCKERT. VIII + 26 pp. *Herder*, 1906

اطلس الكتاب المقدّس

ظهر اطلس الدكتور ريس لاوّل مرّة في اللاتينيّة مع فهرس واسع فاضحى كتابًا مدرسيًا يلتجئ اليه كل من يهتمّ بالدروس الكتابيّة لمعرفة جغرافيّة الاسفار المقدّسة ثمّ نقلهُ صاحبهُ الى اللاتينيّة سنة ١٨٩٦ تعميمًا لفوائده فزاد الاقبال عليه حتّى نفد بوقت قليل ولم تسمح الوفاة لمؤلفهِ ان يجدّد طبعهُ فتولّى هذا العمـل الدكتور روكرت احد مشاهير كليّة فريبورغ في برسغو وتمم رغائب الميت . ومن مزايا هذه الطبعة الجديدة بعض اصطلاحات في تعيين مواقع الامكنة فان الدكتور روكرت نقل مثلًا موقع جبل صهيون من شرقي اورشليم الى غربيها في الخارطة الثامنة وكذلك جدّد الفهارس وحسّن الطبع وكل ذلك ممّا يجدي الكتاب نفعًا جديدًا ويرغب الدارسين في استعمالهِ . على اننا كنا وددنا لو غيّر الدكتور الخوارط المختصّة ببلاد كنعان واشور وبابل واستفاد لصنعها من الاكتشافات الجديدة فكان بذلك اكتسب شكر العلماء الاب س . رنوفال

Marcel Dubois et Camille Guy. ALBUM GÉOGRAPHIQUE — T. V, LA FRANCE. Paris, A. Colin, 1906, In-4°, XVI-244 pp. illustré de 652 photographies.

المعرض الجغرافي — فرنسا

ليس هذا الكتاب مجموع دروس جغرافيّة وانّما هو تتمّة وملحق لها وضعهُ صاحبهُ كعمل فنّي وعلمي معًا . اما من جهة الفن فانهُ جمع احسن تصاوير بلاد فرنسة ومدنها